د. محمد فايز فرحات ماجد م

طارق على يكتب عن عصر تشرشل وجرائمه

29 مارس 2026

إبراهيم داود

طارق على روائى بريطانى من أصل باكستانى ولد فى لاهور سنة 1943، ذاع صيته بسبب روايته «فى ظل شجرة الرمان» التى تناولت مأساة المسلمين اثناء انهيار الأندلس، وهو صاحب موقف محترم ضد السياسات الأمريكية والإسرائيلية، ولحسن الحظ ترجمت معظم كتبه الى العربية، مثل «صدام الأصوليات : الحملات الصليبية والجهاد والحداثة» وكتاب «بوش فى بابل» الذى انتقد فيه الحرب الأمريكية على العراق، وكتاب مائة عام من العبودية، وكتاب صلاح الدين، وحوار مع ادوار سعيد، وغيرها من الأعمال القيمة.

قرأت له مؤخرا كتاب « وينستون تشرشل . عصره وجرائمه» الصادر عن دار الكتب خان بترجمة لنهى مصطفي، فى البداية تساءلت : ماذا سيضيف على فى كتاب يقع فى 480 صفحة من القطع الكبير عن تشرشل الذى قتل بحثا، وما أن شرعت فى القراءة، وجدتنى أمام كتاب ابداعى يستدعى زمنا وحروبا وخرائط تتغير بالقوة، كتاب مكتوب بحرارة وشفقة على شعوب تم انتهاك سيادتها من قبل الاستعمار الذى يعود هذه الأيام فى صورة لا تقل فجاجة عن الماضي، صدر عن تشرشل الذى قاد بريطانيا الى النصر فى الحرب العالمية الثانية أكثر من 2000 كتاب، معظمها يمجد أسطورته، قدم طارق الكتاب ببيت شعر لبريخت يقول «تعيسة هى الأرض التى تحتاج الى بطل»، ثم قدم قراءة نقدية حادة فى إرث تشرشل، أحد أكثر الشخصيات تبجيلا فى التاريخ البريطانى الحديث، لم يسع طارق على الى تشويه صورة رئيس الوزراء الأسبق بقدر ما يحاول تفكيكها، وذلك من خلال الكشف عن عنصريته التى تتجاهلها السردية الرسمية،

ويرى المؤلف أن تمجيد تشرشل فى الثقافة الغربية المعاصرة، يتجاهل عن عمد سياساته التى تسببت فى معاناة شعوب كثيرة،.

ويستعرض بداياته فى الجيش، ودوره فى قمع الثورات فى السودان والهند، حتى قيادته خلال الحرب، ولكن تركيزه الأساسى يصب فى ذهنية تشرشل الإمبريالية، لا على مسيرته الزمنية، يرى طارق على أن المرأة الحديدية مارجريت ثاتشر هى صاحبة الفضل فى صناعة أسطورة تشرشل المزيفة، وذلك خلال حرب الفوكلاند ضد الأرجنتين، وأن بوريس جونسون حاول هو الآخر أن يرسم لنفسه صورة لتشرشل آخر، من خلال كتبه عن سلفه وكأنه يكتب عن نفسه!، تونى بلير حاول استخدام تشرشل، لكن جونسون يختلف عنه وعن ثاتشر بقدرته على الكتابة، ومثله يحلم بإحياء الإمبراطورية، لكن بريطانيا اليوم، من وجهة نظر صاحب الكتاب، ليست أكثر من دولة تدور فى فلك الولايات المتحدة، مثلها مثل أستراليا، فى عام 2000 قام المشاركون فى مظاهرة مناهضة للرأسمالية فى لندن، بطلاء تمثال تشرشل فى ساحة البرلمان، ووضعوا قطعة من العشب على رأسه لتشبه قصة الموهوك الشبابية، غضب بلير جدا، وقال «يجب ألا يسمح بحدوث مثل هذه الأشياء مرة أخري»، واقترح ابقاء هذه المظاهرات خارج لندن، واستمر طلاء التمثال على فترات خلال السنوات التالية، ووصل الأمر الى ذروته فى 2020، عندما كتب نشطاء حركة «حياة السود مهمة» على قادة التمثال «تشرشل كان عنصريا».

يستعرض الكتاب تصريحات تشرشل التى وصف فيها الشعوب غير الأوروبية بالدونية، ومواقفه المناهضة لحركات التحرر فى العالم، وعلى رأسها استقلال الهند وازدراؤه لغاندى العظيم، ويفضح الكتاب دوره فى مجاعة البنغال سنة 1943 والتى حصدت أرواح ثلاثة ملايين شخص، متهما إياه باللامبالاة والاحتقار العلنى للضحايا، كما يبرز دعمه لاستخدام الأسلحة الكيميائية فى الشرق الأوسط، وموقفه العدائى من الفقراء فى بريطانيا ورفضه لأى إصلاح اجتماعي، طارق على اليسارى لم ينس لتشرشل تأييده للديكتاتور

الفاشى فرانكو فى الحرب الأهلية الإسبانية، واعجابه بموسولينى فى ايطاليا، كيف تحول تشرشل رغم كل هذا رمزا عالميا يتم الاحتفاء به؟.

يرى طارق على أن السبب هو صعود النزعة القومية فى الغرب، ورغبة المؤسسات فى تبنى رموز تمثل «العظمة الإمبراطورية» رغم تاريخها الدموي، فى الكتاب حكايات عن هذا التاريخ، ربما كان أكثرها قسوة على كقارئ، القمة التى دعا إليها بسمارك فى برلين سنة 1884، والتى استمرت ثلاثة أشهر، وكانت الأجندة الحقيقية تتألف من بند واحد: أفضل السبل لتقسيم إفريقيا، وأصبحت عمليات الاستيلاء والاغتصاب والاحتلال التى تلت ذلك مسئولية « الحضارة» الأخ الأكبر لـ«التدخلات الإنسانية» فى أيامنا هذه، تم التقسيم، ومنح الملك البلجيكى ليوبولد الثانى الكونغو كإقطاعية شخصية، وهو حدث فريد من نوعه فى تاريخ الإمبريالية كما يقول المؤلف، لأنها كانت المرة الوحيدة فى العصر الحديث التى تم فيها الاعتراف رسميا ودوليا بإقليم بأكمله، باعتباره ملكية شخصية لشخص واحد، احتفظت الكونغو بهذه المكانة لمدة ربع قرن، كانت مصدر ثروة ليوبولد الهائلة، ومع هذا لم يكلف نفسه عناء زيارة ممتلكاته (كان خائفا من الإصابة بالأمراض الإفريقية)، كان الرعب الذى تعرض له الكونغوليون على نطاق ومستوى من الوحشية السادية، يتجاوز أى شيء آخر حدث اثناء استعمار إفريقيا، كان الغزاة من البلجيكيين وغيرهم، يبحثون عن العاج والمطاط، وكان الجنود والإداريين يحصلون على أجورهم، على مقدار العاج والمطاط الذى يمكنهم اجبار القرويين على جمعه، واذا لم تسلم القرية ما يكفي، كانوا يقومون بقتل الذكور البالغين، وأحيانا النساء والأطفال، ولإثبات أنهم قتلوا العدد اللازم دون اهدار الرصاص، كان الجنود يقطعون أيدى ضحاياهم وأجزاء أخرى من أجسادهم، ويتم إرسالها الى بروكسل فى أوعية من الكحول للحفاظ عليها، وكان لوبولد الذى قتل رجاله ما بين ثمانية وعشرة ملايين كونغولى سعيدا بهذا القرار... هذه النماذج فى التاريخ هى التى تتلمذت على يديها شخصيات مثل ترامب ونيتانياهو.